من هنا وهناك

وثنيـــة إخوان الصفاء

نشر الأستاذ جبور عبد النور فى مجلة « الأديب » البيروتية [1] مقـالا ، بعنـوان « معالم الوثنية فى رسـائل إخوان الصفاء » ، حاول فيه أن يجعل من إخوان الصفاء جماعة اتفقت كلمتهم على هدم الإسلام والرجوع إلى الوثنية القديمة و إلى الوثنية الحرانية بصفـة خاصة ، وحاول الكاتب أن يدلل على ذلك كله بما فهمه من بعض نصـوص وردت فى الرسائل وأشار إلى صفحاتها فى الطبعة المصرية .

رجعت إلى النصوص التى ذكرها الكاتب ، ولكنى عجبت أشد العجب من أن الأستاذ جبور لم يكن دقيقاً فى نقـل النص ؛ فقد عمد إلى تلخيـص أجزاء من النص هى التى تتفق مـع القضية التى افترضها ، ودفع باقى النص الذى يدحض فروضه ويخالفها . هـذا أول ما ألاحظه على بحث الأستـاذ جبور . ملاحظة أخرى هى أن الأستاذ الكاتب فهم النصوص على هواه هو ، لا كما أرادها إخوان الصفاء ، وحمل النصوص من المعانى مالا تتفق مع سياق ماورد فى الرسائل . ولعل للاستاذ الكاتب عذره فى ذلك ، فدراسـة رسائل إخـوان الصفـاء من أشق الدراسات العربيـة وأعسرها ، والباحث للرسائل فى حاجة إلى مقارنة كل النصوص مقارنة دقيقـة ، وأن يربط بعضها ببعض ؛ فقد تجد مثلا فى الجزء الرابع شرح مافى الجزء الأول . فإذا لم يفطن الباحث إلى طريقـة الإخـوان فى الكتـابة ، فقد لا يخرج بنتيجة من دراسته . أضف إلى ذلك كله أن بالرسائل بعض الرمـوز التى يصعب الوصول إلى معرفتها وفك أسرارها إلا إذا اطلع على التـأويل البـاطنى للإسماعيلية . فلا شك أن هناك علاقة وثيقة بين الاسماعيليـة و إخـوان الصفـاء ، فمعرفة أسرار الاسماعيليـة يؤدينا إلى معرفة وفهم نصوص رسائل إخوان الصفاء .

ملاحظة ثالثة هى أن بحث الأستاذ جبور قد ملئ بالمغالطات الجريئـة فى

(١) عدد يناير ١٩٤٧ ص ٢٥

سبيل الدفاع عن الفروض التى افترضها . نرى ذلك كله واضحاً فى هذا البحث المنشور فى مجلة «الأديب» .

ففى الجزء من البحث الذى جعل عنوانه « فصل الملك عن النبوة » أراد الكاتب أن يوهمنا أن إخوان الصفاء هم أول من قال بفصل النبوة عن الملك ، وأنهم يخصون صاحب الشريعة بصفات معينة كما يجعلون للملك خصالا أخرى ، وفى ذلك تتضح وثنيتهم ! فلا أدرى ماهى الوثنية فى ذلك ! ولعل الكاتب لم يقرأ ما ورد فى القرآن الكريم عن سليمان وملكة سبأ ، وكيف فرق القرآن بين الأنبياء وملوك الدنيا ، وقد زخرت كتب التاريخ والتفسير بذلك كله ولم يقل باحث واحد بوثنية هؤلاء المؤرخين والمفسرين . ولكن الفكرة التى اختمرت فى عقل الأستاذ جبور جعلت إخوان الصفاء هم أول من فرق بين النبوة والملك ، وبذلك اتضحت فى عقائدهم الفكرة الوثنية لقولهم بهذا الرأى . أما قول إخوان الصفاء : « إن النبى محمد صلى الله عليه وسلم أقام بمكة فى أول مبعثه نحوا من اثنتى عشرة سنة يدعو الناس ويعلمهم معالم الدين حتى استوفى خصال النبوة وأحكمها ثم هاجر بعد ذلك إلى المدينة وأقام بها نحوا من عشر سنين فى ترتيب أمر الأمة وتحذير الأعداء وجباية الخراج والعشر ومصارعة الأعداء والمهادنة... حتى أحكم أمر الملك » (١) فقد شاء الأستاذ جبور إلا أن يقتطع النص ويأخذ منه مايتفق مع ما افترضه ؛ فقد اكتفى بأن أشار إلى أن النبى صلى الله عليه وسلم فى الطور المكى كان نبيا بدون سلطان ثم أصبح فى الطور المدنى نبيا وملكاً . أما ما أدلى به « الاخوان » عن تعليل ذلك ومن أن الله جمع الملك والنبوة لسليمان وداود ويوسف ومحمد ، وحرص الإخوان على مصلحة الناس فى أن يستند الملك إلى الدين والدين إلى الملك ، إلى غير ذلك من الآراء العديدة التى وردت فى الرسائل فقد أبى الأستاذ جبور أن يتحدث عنها أو أن يشير إليها ، بل خرّج هذه النصوص تخريجاً يناقض ماجاء فى الرسائل وعلق عليها بقوله: « فهم إذن لا يرون أن الدين والدنيا قد اجتمعا فى شخص الخليفة ، كما يعتقد سائر المسلمين ، بل يسلمون بأن هذا الاجتماع هو أمر طارئ » . فالرسائل تتحدث عن الأنبياء والأستاذ جبور أبى إلا أن يجعله عن الخلفاء . وإذا فرضنا أن الحديث عن الخلفاء فهل

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٣

درس الأستاذ جبور التاريخ الاسلامى حتى يعلم أن سائر المسلمين لم يعتقدوا أن الخليفة يجمع الدين والدنيا ، فقد كثرت الفرق الإسلامية لخلافهم فى الخليفة .

وفى الفصل الذى سماه الأستاذ جبور « تفضيل المجوسية على اليهودية » نراه قد تعمد تشويه ما جاء فى الرسائل ؛ فقد استغل الكاتب المعنى الشائع للمجوسية دون تحقيق عقيدة المجوس ، تحقيقاً علميا . ولعله إذا قرأ كتاب «الفِصَل فى الملل» لابن حزم الأندلسى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ . مثلا لأدرك أن عدداً من الصحابة والتابعين منهم على ابن أبى طالب وسعيد بن المسيب وقتادة وجمهور اصحاب أهل الظاهر قالوا إن المجوس أهل كتاب ، وقد أثبت ابن حزم ذلك فى كتب أخرى ذكرها فى كتابه هذا (١) ، ومع ذلك لم يأبه الأستاذ جبور بقول إخوان الصفاء عن عقيدة المجوس « بأنه الذى يريد الخير لنفسه ولأبناء جنسه كلهم ، ولا يريد لاحد من الخلق سوءا لا لمن كان على دينه ويوافقه ، ولا لمن يخالفه ويضاده فى مذهبه، حتى ولو ظلمه وتعدى عليه ؛ لأنه يعلم أن فى السماء إلها خبيراً فاضلا عادلا حكيما عليما لا تخفى عليه خافية فى أمر خلقه ، وهو يجازى المحسنين باحسانهم ويكافىء المسيئين على إساءاتهم » .(٢) ومن ناحية أخرى لم أجد فى الرسائل مايشير ولو إشارة خفيفة إلى أن القصة رويت لتفضيل المجوسية على اليهودية كما تخيل الكاتب، إنما رويت القصة للتدليل على أن من اعتقد رأياً أو ذهب مذهباً وتصوره وتحقق به صارت أخلاقه وسجاياه مشاكلة لمذهبه واعتقاده ؛ لأنه يصرف أكثر همه وعنايته إلى نصرة مذهبه فى جميع تصرفاته ، فيصير ذلك خلقاً له ، وسجية وعادة يصعب إقلاعه عنها وتركه لها (٣) « وإذا فرضنا وذهبنا إلى أن الاخوان أرادوا التفضيل فانما هو تفضيل بين شخصيتين لا بين عقيدتين . والغريب أن يذهب الأستاذ الكاتب إلى أن القصة ختمت بتمجيد المجوسية فكانت أفضل الأديان ! بينما ختمت القصة فى الرسائل بأن أعيد اليهودى إلى أهله مكسوراً » وأن المجوسى حدث الناس بها فجعلوا يعجبون من أمرهما » . فواضح جداً الفرق بين الخاتمتين . ولا أدرى ما الذى دفع الأستاذ جبور إلى هذا التحريف .

---

(١) ج ١ ص ٩٢ الطبعة الأولى المصرية سنة ١٣٤٧ هـ .
(٢) الرسائل ج ١ ص ٢٣٧ — (٣) شرحه .

أما فى الجزء الذى كتبه بعنوان « هرمس وفيثاغورس » فلعل الكاتب قد تواضع لدرجة جعلتنا نشك فى سعة اطلاعه على ما خلفه علماء المسلمين . فالكتب العربية ذكرت أن هرمس هو نبى الله إدريس ، ولم يكن إخوان الصفاء وحدهم هم الذين ذهبوا هذا المذهب ، بل من المؤرخين من يجعل هرمس هو توت إله قدماء المصريين ، ومنهم من يسمى هرمس أخنوخ أو إدريس نبى العبرانيين ، وتكاد الكتب العربية التى سبقت إخوان الصفاء تجمع على أن إدريس (أو هرمس) هو منبع العلم وأول من تحدث فى الجواهر العلوية والحركات النجومية[1] فلا غرابة فى أن يتبع إخوان الصفاء رأيًا قال به علماء المسلمين قبلهم . و بمنطق الأستاذ جبور يجب أن يكون هؤلاء العلماء وثنيين . فانى لا أستطيع أن أقبل استنتاج الكاتب بأن إخوان الصفاء وثنيون لقولهم إن هرمس هو إدريس، أو قولهم إن فيثاغورس من حران بدلا من بلاد اليونان . قد اعترف إخوان الصفاء مراراً فى رسائلهم بأنهم يتبعون الفيثاغوريين فى آرائهم ، فكان الأحرى بالأستاذ جبور أن يبحث علاقة الفيثاغوريين بعقيدة إخوان الصفاء ، فان مثل هذا البحث جدير بأن يتشبث به كاتب بدلا من تعلقه بقولهم إن فيثاغورس من حران ، واستنتاجه أنهم وثنيون حرانيون لذلك .

ويزداد شك الأستاذ الكاتب وحيرته عندما يصل إلى الرسالة التاسعة من العلوم الناموسية والشرعية ؛ فقد فهم الكاتب أن الاخوان يقومون بجميع شعائر الدين الاسلامى الحنيف فروضه وسننه ، ويعرفون ساحله الاسلام وما حرّمه فيقومون بهذه ويتركون تلك . ولكن عند الأستاذ الكاتب أن ذلك كله لكتم أمرهم عن العامة ! وفى الوقت نفسه يقول إن الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية التى تبين طقوسها بجلاء فى عبادة الصابئة لاعتقادهم أنهم أحق الناس بالعبادة الفلسفية الالهية والأخذ لها والتجديد لما دثر منها . ولكن الكاتب لم يبين لنا كيف كان الاخوان يقومون بالشعائر الوثنية ، هل كانوا يقيمونها خفية أم على مرأى ومسمع من الجماهير ؟ الواقع أن الكاتب فهم ذلك لأنه لم يشأ أن يفهم النص بأكمله فاكتفى بجزء من النص وترك أكثره .

---

(١) الشهرستانى ج ٢ ص ١١٢ (على هامش الفصل لابن حزم) . والقفطى مادة إدريس وهرمس . وطبقات الأمم لصاعد .

ففى هذا النص من الرسائل إشارة صريحة إلى أن الاخوان علويون ، فهم أقرب الناس إلى النبى الكريم ، وأنهم أولى الناس بحمل شعائر الدين الاسلامى وأخص الناس به . ولكن الكاتب تغاضى عن ذلك كله فى سبيل التدليل على ما ألزم نفسه به من فروض ، ولو أدى ذلك إلى إهمال النص . وكذلك لم يشأ الكاتب أن يبحث معنى قولهم «العبادة الفلسفية الالهية» واكتفى بأن فسرها من عنده بأنها العبادة الوثنية وترك أقوال إخوان الصفاء أنفسهم فى شرح هذه العبادة بقولهم« الاقرار بوحدانية الله »[1] وأن العمل بالعبادة الفلسفية الالٰهية إيمان ولا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون مسلما والاسلام سابق على الايمان [2] وأن النبى صلى الله عليه وسلم كان إماماً للمسلمين والمؤمنين عارفاً بالعبادة الفلسفية الالٰهية.[3] ولو اطلع الأستاذ على رسالة الجامعة من رسائل إخوان الصفاء وقارن بين نصوص الرسائل كلها ، لاستطاع أن يدرك أن المقصود « بالعبادة الفلسفية الالٰهية » هو مايعرف عند الاسماعيلية والصوفية بعلم الباطن وأن العبادة الشرعية الناموسية هى علم الظاهر . ولعل الأستاذ جبور إذا أعاد قراءة الرسائل المطبوعة سيجد أنها مفعمة بالاشارة إلى الظاهر والباطن ، و إلى أن العبادة الفلسفية الالهية هى العبادة بالباطن الذى قال به الاسماعيلية ومنهم إخوان الصفاء .

وقد بدا للكاتب أن الأفق القائم قد انجلى له لحديث الاخوان عن الأعياد الاسلامية العادية والأعياد التى سماها بالأعياد الفصلية التى كان يتخذها القدماء . ولكن الأمر أبسط مما توهمه ؛ فقد ينجلى له الأفق القائم لو لم يحمل النصّ أكثر مما يتحمله ، فقد قارن إخوان الصفاء الأعياد (الفصلية) بأعياد المسلمين بقولهم : «و إذا أنعمت النظر إلى أعياد الشريعة الاسلامية وجدتها موافقة لها (أى للأعياد الفصلية) وذلك أن نبينا عليه السلام سن لأمته فى شريعته ثلاثة أعياد ، فالأول منها عيد الفطر ، وهو أعظم فرح يكون بخروج الناس من شدة الصوم إلى الفطر كفرح أهل الأرض بقدوم الربيع والخصب بعد ذهاب الشتاء ، ثم عيد الأضحى وهو يوم تعب ونصب لأنه يوم الحج فيكون الوفد الشرعى فيه شعثاً غبراً ويحتاج فيه إلى إراقة دم ويكون فرحاً ممزوجاً

(١) الرسائل ج ٤ ص ٣٠١ — (٢) الموضع السابق — (٣) ج ٤ ص ٣٠٢

بغم ونصب ، فيكون الفرح دون الفرح الأول كفرح الفلاسفة بالعيد الثانى من سنتهم ، إذ كانوا يستقبلون الهجير والرمضاء والسمائم وشدة الصيف . واليوم الثالث فى السنة الشرعية يوم وصيته عند انصرافه من حجة الوداع بغدير خم ، وفرحه ممزوج لأنه خالط ذلك بنكث وغدر ، موافقاً للعيد الثالث الفلسفى المتقلب فيه الزمان من الصيف إلى الخريف ، فتناهى حال الثمار وأخذها فى النقصان والجفاف . واليوم الرابع هو يوم الحزن والكآبة فهو يوم قبض فيه النبى صلى الله عليه وسلم إلى رضوان الله ومحل كرامته صلى الله عليه وسلم وإن كان عيدا له لما وعده ربه تعالى بقوله « وللآخرة خير لك من الأولى » فهو بانتقاله إلى جوار الله وكريم فنائه عيد له غير أنه مشوب بمصاب أمته وانقطاع الوحى وفقدهم شخصه الكريم . » (١) ثم ذكر الاخوان أنهم اتخذوا لأنفسهم أعياداً خاصة توافق أيضاً هذه الأعياد الشرعية وهذه الأعياد الفصلية ، وهى خلاصة ما أرادوا ذكره عن الأعياد ، بخلاف ما فهمه الأستاذ جبور . ولا صحة لما ذهب إليه الكاتب من أن الاخوان « كانوا يصلون بصلاة قدماء اليونان ويدعون بالأدعية الأفلاطونية ويتوسلون بالتوسل الادريسى ويناجون مناجاة الأرسطاطالية » فقد وردت هذه الألوان من العبادة فى الرسائل منسوبة إلى قدماء اليونان وأنها عبادة الفلاسفة الالهيين . ولكن فات الأستاذ جبور أن يعرف ما الذى قصد إليه إخوان الصفاء بقولهم : «ولما تمت الفضيلة لواحد من أهله (أى من أهل النبى صلى الله عليه وسلم) وأصحابه قال مفتخراً : أنا أرسطاطاليس هذه الأمة .» (٢) فمن هذا النص الذى أهمله الأستاذ الكاتب نستطيع أن نذكر أن ذكر أفلاطون وإدريس وأرسطاطاليس فى النص السابق رموز أريد بها الأئمة من أهل البيت. (٣)

وقد ذهب الكاتب إلى أن إخوان الصفاء كانوا يحللون القرابين وذبح الحيوانات فى الهياكل قرباناً لمن يعبدونه . فهذا القول لا يتفق مع ماورد فى الرسائل ، وقد فسر الاخوان قربانهم بقولهم إنه « التقرب بما تقرب به ابراهيم من الكبش الممنون به عليه فداء لولده الذى قد رعى فى أرض الجنة أربعين خريفاً» . ثم قولهم : «فان تمكنت

(١) ج ٤ ص ٣٠٦ — (٢) ج ٤ ص ٣٠٢
(٣) راجع الرسالة الجامعة لاخوان الصفاء .

أن تتقرب بكبش رعى فى أرض الجنة ولو شبراً فافعل ولا تقعد عنه واجتهد فى ذلك . . . » [١] وربما لم يستطع الكاتب أن يفك هذه الرموز أو أن يصل إلى حل هذه الأسرار ، ففسرها بما يتفق مع فروضه . ولو كان قداطلع على كتب التأويل عند الاسماعيلية او على رسالة الجامعة لأدرك أن لهذه الاشارات تأويلا باطنيا ؛ فالقربان عندهم هو العهد والميثاق ، والكبش هو حجة الإمام أو كبير دعاته ، وأرض الجنة هى أرض الدعوة [٢] ، وبذلك نستطيع أن نفهم أقوال إخوان الصفاء فى قربانهم على النحو الذى أرادوه هم ، لا على النحو الذى فهمه الأستاذ الباحث .

أما قوله : «وينتهون من ذلك إلى القول بأن الهياكل التى بناها الفلاسفة هى شبيهة بالهياكل الموجودة فى السماء» فهو تحريف لقول إخوان الصفاء « وبناؤهم الهياكل فى الأرض على مثال ماهى مبنية فى السماء » . فكلمة مثال هنا فى نص الرسائل لها مدلولها ، المصطلح عليه فى الرسائل وفى كتب الاسماعيلية . ذلك أن الاسماعيلية ، ومنهم إخوان الصفاء ، بنوا عقائدهم الباطنية (وهى العبادة الفلسفية الإلهية التى شاء الأستاذ جبور أن يقول إنها العبادة الوثنية) على نظرية خاصة ، أطلقت عليها « نظرية المثل والممثول » . [٣] وتقوم هذه النظرية على أن كل ماخلقه الله من المحسوسات الظاهرة هى مثل ، ولها فى الباطن ممثولات ، وكل ما فى الأرض مثل وما فى السماء ممثول . وبناء على هذه النظرية ، وبتأويل الفلاسفة الإلهيين بالأئمة كما سبق القول من قبل ، نقول إن الأئمة مثل والحدود الروحانية ممثول ؛ فما يأتيه الأئمة فى الأرض من عبادات هى مثل لما يأتيه الحدود الروحانية فى السماء . وفى ذلك يقول المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى داعى الدعاة :

أقصد حمى ممثوله دون المثل
ذا إبر النحل وهذا كالعسل

ولا أوافق الأستاذ جبور فى قوله إنهم من عبدة الكواكب السيارة ، لا أوافقه لسبب بسيط وهو أنه لم يرد

(١) ج ٤ ص ٣٠٩

(٢) راجع تأويل قصة إبراهيم فى كتاب سرائر النطقاء لجعفر بن منصور اليمن ، وتأويل الحج فى كتاب تأويل دعائم الاسلام للقاضى النعمان بن محمد . وفى اعجالس المؤيدية لداعى الدعاة المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى . وكلها فتوغرافية عنه جامعة فؤاد الأول بالقاهرة .

(٣) راجع مقدمة ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة (تحت الطبع بشركة الكاتب المصرى) .

نص ولا إشارة إلى ذلك فى الرسائل . و إن كان الأستاذ قد استدل بقولهم إن الكواكب السيارة لها تأثير فى عالم الكون والفساد ، فلعل الكاتب يوافقنى على أنه ليس إخوان الصفاء وحدهم الذين قالوا بهذه المقالة ، ولعله قد قرأ ما ورد فى مروج الذهب للمسعودى فقد أفرد فصلا خاصا بذلك . ووضع الأستاذ الكبير المرحوم نالينو المستشرق الايطالى كتاباً فى الفلك عند العرب ، وقد ذكر من قال بتأثير الكواكب فى عالم الكون والفساد . وكذلك نقول إن الحرانيين — الذين يريد الكاتب أن ينسب إخوان الصفاء إليهم — ليسوا وحدهم الذين ذهبوا هذا المذهب . واستدلال الكاتب بأن الاخوان من المثمنة ليس بصحيح ؛ لأن الناظر فى الرسائل يعتقد لأول وهلة أنهم مخمسة لا مثمنة .. والحقيقة كما قلت من قبل أنهم كانوا فى هذه الناحية فيثاغوريين لا يرتبطون بعدد من الأعداد بل جعلوا لكل عدد أصلا من أصول عقيدتهم (١) .

و إذن نستطيع — مطمئنين — أن نرفض هذه الفروض التى افترضها الأستاذ جبور عن وثنية إخوان الصفاء والحرانية ، وأن نعيد ما قاله الباحثون السابقون عن إخوان الصفاء من أنهم من الاسماعيلية . ولعل الأستاذ جبور قد لمح إلى ذلك دون أن يشعر بحديثه عن العلاقة التى بين نصوص الرسائل ونصوص رسائل جابر بن حيان . وأن جابر بن حيان كان على صلة بالإمام جعفر الصادق الإمام السادس للشيعة الاثنى عشرية والخامس للشيعة الاسماعيلية ، فوجود هذه الصلة بين أقوال إخوان الصفاء وأقوال جابر تدعونا إلى الوقوف طويلا للبحث عن علاقتهما بعضهما ببعض وعلاقة الاخوان بالاسماعيلية . وهذا ما أرجو أن أتناوله فى مقالات أخرى .

محمد كامل حسين

---

(١) راجع مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .